فن المراجعة

والتعقيب

— ٢ —

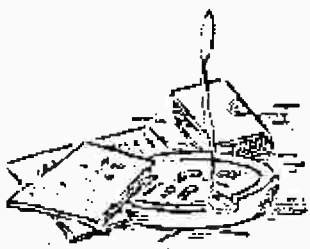

للأستاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتي

وسواء أسارت مراجعة الكاتب على طريقة من هذه الطرق ، أم لم تسر ، فمن الواجب على الكاتب مراعاة قواعد الصناعة الفنية للمراجعة ، واحترام آدابها . وقد سجلناها في صدر هذا المقال[1] ، وعلى رأسها الابتداء بثورة الشوق ، أو وتد الشوق ، أو كما يقول أحد عمداء الصحافة الأمريكية الأستاذ ـ جرانت هايد ـ وذلك بالابتداء بالذروة Climax ووضع خلاصة منظمة منطقية لمحتويات الكتاب لبيان هدفه ورسالته .

ونظرة فاحصة إلى مراجعات كتابنا ، تكشف عن مدى تخلي أغلبها عن الكياسة ، أو وهن مستواها وجهالتها ، أو هوائيتها ومحاملها وعدوانها الأثيم على الكتاب والكاتب . فمنهم من يراجع أو يعقب مراجعة سطحية مضطربة تسير سير النقاط في حركاته الطائشة ولا يخرج منها القارىء بثمرة وهذا ما تنفثه أقلام الشادين في الأدب ، وهناك من يعقب تعقيباً رنانا ، طنانا ، كطنين الزنبور ، فيثير في الجو ضجة ، وفي الأعصاب توتراً ورجة . وهذا ما يجري عليه المستقون المتفاصحون . وهناك من يضطر لجم ما في التأليف من رحيق ، ويمز عليه أن يتركه دون لدغة . وهناك من يرجو بمراجعته التقرب إلى أحد كبار المؤلفين ، فيملأ كتابته مدحاً وتقريظاً ، ويقف أمام كتابه الجديد ، كدود الأرض الوضيع . وهناك من يتخذ من التعقيب أداة للتشهير ، وتلطيخ سمعة الكتاب وكاتبه ،

(١) راجع مقتطف سبتمبر سنة ١٩٥١

وهذا هو التعقيب العقربي العام الذي يكشف في الغالب عن نفس كاتبه وأخلاقه السيكولوجية ، ويؤدي دائماً إلى تحقير والزراية به.

فهذه التعقيبات السطحية منها ، والمتفاصحة ، والتي [illegible] أو الناصحة ، شواهد على وهن مستوى الذوق والمعرفة لدى بعض المعقبين ، أو على الجرح ، والاستفزاز ، وروح النقمة لدى البعض الآخر ، وهي تعقيبات تثمر ثمرة عكسية ، إذ تعود حكماً قاسياً على المعقب ، وعلى عقله وخلقه ، وأدبه ، ولن تؤثر في المؤلف تأثيراً يذكر .

فلقد قرأنا تعقيباً ، على كتاب « البلاغة العصرية » للأستاذ سلامه موسى ، يتم على الجهالة والتعصب الذهبي ، وطالعنا تعقيبات في العام الماضي بمجلة الرسالة لشاب جامعي مأبوءة بالتعالم والغرور وتتم على الترجمية ، وعجبنا من تعقيب على كتاب « مذكرات » للأستاذ الكبير كردعلي وافر بالنقمة منه على صراحته ، وتلوناً في عجلة الكتاب ببعض تعقيبات مطبوعة بطابع النفاق والتمدح بمؤلفات بعض كبار الأستاذ ، وعجبنا من تعقيب في مجلة المقتطف على ديوان لأحد شعراء الحجاز ، وهي العيوب ولم يذكر للشاعر حسنة .

ولا نود أن نذكر في هذا المقام أسماء هؤلاء الكتاب ، ولا أن نسدد أسنة هذه المهازل التي ترجع أسوطها إلى أزمة الخلق وضيق الأفق من ناحية ، وإلى تهاون المحرر المسئول في الصحف والمجلات في المسئولية الأدبية الخطيرة الملقاة على عاتقه ، وعدم اكتراثه بمدى الحرية القلمية .

ومثل هذا التهاون ورثت منه المجلات والصحف الغربية الراقية ، لأن المحرر الأدبي يوزع الكتب الجديدة على المعقبين بحسب مقدراتهم وفهمهم لموضوعات هذه الكتب ، ولا يترك المعقب يقول كما يهوى ، بل تعتد في المجلة أو الصحيفة لمراقبة هذه التعقيبات ، وفي هذه الطريقة المثلى انصاف للمعقب والمؤلف على السواء ، واحترام للمجلة وثقة بها .

ويقتضينا الانصاف أن نسجل أن البيئة الفكرية في مصر ، أفرزت بطائفة من التعقيبات الواعية الذكية لبعض الكتاب الناشئين ، ونذكر منهم : الدكتور أحمد زكي أبو شادي ، والأساتذة علي أدهم ، وشوقي ضيف ، والصيرفي ، والدكتور يوسف كرم ، والدكتور يوسف مراد ، والدكتور زيور ، والدكتور الأهواني ، والدكتورة عائشة عبد الرحمن والأساتذة عادل الغضبان ، وعبد الغني حسن ، ووديع فلسطين ، ومفيد الشوباشي ، ومحمد فهمي ، ورضوان ابراهيم وغيرهم من الكتاب

وتتفاوت تعليقات هؤلاء بتفاوت تقافتهم ، وبراعة مشاعرهم ، واتجاهاتهم الفنية ، ومقدراتهم اللغوية .

ويستحسن هنا في هذا التقديم الوجيز أن نبين منهج كتابة تعليقات هؤلاء الكتاب أو غيرهم ، الا لاتخذ هذه التعليقات طابع « ويكون للقارىء الحكم على ما كتبه » ، على ضوء ما قدمنا من توجيهات وآراء . ولن يتسع هذا من الاشارة العابرة إلى ما قرأناه مؤخراً من تعقيب للدكتور يوسف كرم في مجلة الكتاب لكتاب « فلسفة المتنبي »[1] فقد كان تعقيباً وضيئاً ذكيًّا ضم نسيجه خيوطاً ملتحمة من المذاهب النفسية الثلاثة التي أسلفنا ذكرها ، فقدم لنا دراسة شائقة ، وأبان جهد المؤلف في بحثه وذكر أهم آرائه . وأعطى صورة عامة ساطعة تفتح العين إلى قيم الكتاب وفضائله في وحدة أسلوبية محكمة .

وما قرأناه في عدد أكتوبر عام ١٩٥٠ في المجلة ذاتها من تعقيب للدكتور شوقي ضيف على ديوان « نبع الحياة »[2] فقد كان تعقيباً صريحاً ذكيًّا لشعر الديوان بوجه عام ، وقد خلف ما وجهه إلى مؤلفه من نقدات في وشاح مهذب مؤدب ، ولو كان المعقب حدثنا عن بعض قصائده وأتى بنموذج منها ، لكان تعقيبه متكاملاً ، ولأغنى القارىء مادة للحكم بنفسه على الديوان .

وطالعنا في مجلة علم النفس تعقيباً طيباً للكاتبة الفاضلة فاطمة موسى لكتاب الاستاذ عبد خالق الله : « من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده »[3] نوهت في فاتحته بفقر المكتبة العربية من مثل هذه البحوث ، وأبانت الصلة الوثيقة بين الأدب وعلم النفس ، واستشهدت بفقرة من الكتاب في توضيح هذه الصلة ، ثم تناولت الكتاب باباً باباً عن النظرية الكلاسيكية التي شرحناها آنفاً ، وقد فاتها أن أبرز أهم آراء المؤلف ، لاعطاء فكرة واضحة عن هذا المؤلف النفيس ، واطالته أكثر من فقرة من الكتاب لبيان هذه الآراء .

ووقعنا في مجلة « الأديب المصري »[4] على تعقيب لنقاش انصاب أحمد عباس صالح عن رواية « النقاب » للاستاذ عبد الحميد جودة السحار ، تحدث فيه عن أثر البيئة في

(١) مجلة الكتاب — فبراير ١٩٥١ فلسفة المتنبي — تأليف الدكتور أمير بقري نشر

(٢) ديوان « نبع الحياة » للاستاذ محمد عبد الغني حسن .

(٣) مجلة علم النفس مجلد ٥ — أكتوبر ١٩٤٩ — يناير ١٩٥٠

(٤) مجلة الأديب المصري — يونيو ١٩٥٠

المؤلف ، والاقتصاد عن الاغراب عن أفكار الطبقة المتوسطة في مصر ، وميل هذه الطبقة إلى [illegible] عن تقاليدها الموروثة ، وهو بهذا يضرب مثالاً للاتجاه الواقعي في التعقيب ، ولم يفته ذكر هنات فنية في الرواية ، وقد فات المعقب أن يسير على طريقة فنية في تعقيبه .

ويبدو من هذه الامثلة القصيرة ، كيف تتفاوت التعقيبات على الكتب الجديدة في تكاملها أو قصورها ، وفي قوتها أو كلالها ، وفي ميلها إلى مذهب بعينه ، أو سيرها مستقلة أصيلة .

❖

ومع اتسام كثير من التعقيبات في مصر بالاستهتار والنزاهة واللطف ، فان طائفة منها يرنقها التزمت ، والانحراف ، والتطرف ، أو تعوزها العناصر الفنية .

فبعض التعقيبات الكلاسيكية للكتب القيمة تحاول أن تعيبها بذكر هنات لغوية أو نحوية ، أو أخطاء مطبعية ، دون اهتمام بذكر ما وعت من آراء وأفكار جديدة بالتقدير ، وهذا هو التعقيب الفقهي ، وهو أشبه ما يكون بفارغ البندق ، الذي يتعب الأنياب في كسره دون ثمرة . ومن مثال هذا ما قرأناه للاستاذ سيد صقر تعقيباً على كتاب « غوطة دمشق » [1] إذ سرد المعقب أبواب الكتاب سرداً وأعقب ذلك بهنوة لغوية ، وغلطة جغرافية على زعمه وختم العرض بالثناء المستطاب على المؤلف ، ووصف الفصل الأخير بأنه بلغ ذروة الكمال والجمال .

ويدخل في باب التعقيبات الفقهية تلكم التعقيبات الملونة المزركشة الزاخرة بالأصباغ التي تنادي القارىء إلى جمالها المجلوب ، ولا تهيب به إلى قراءة الكتاب المعروض ، وهذا ما نقع عليه في مثل كتابات الأستاذ كامل عجلان

وتوغل بعض التعقيبات الرومانتكية في الذاتية ، فيهوم المعقب في دنياه ، ويحوم بالقارىء حول سحابة دكناء ، لا يرى من ورائها ضياء ولا ضياء ، ويظهر الكتاب الجديد في لحد مظلم كئيب ، وتجري بهذه التعقيبات أقلام بعض الشعراء العائشين في الأبراج ، وهؤلاء قلال بل نوادر في مصر .

ويدخل في باب هذه التعقيبات الذاتية ، تلكم التعقيبات المتأثرة بالاعتبارات الوجدانية ، إذ يعمل المعقب على النيل من كتب قيمة لخلاف مع المؤلف في الرأي ، أو للذهب ، أو وجود تنافر شخصي بينهما ، وهذا ما نلمسه في بعض تعقيبات الأستاذين

(١) مجلة الثقافة

سيد قطب ، والعوضي الوكيل .

وتسرف بعض التعقيبات الواقعية في المجاملة ، وتنظر إلى كل تأليف على نظرة استخفاف وتهوين ، ويتساهل كاتبو هذه التعقيبات تبعا لمزاج طبقات المؤلفين وتنوع تجاربهم ، وآثار التصميم الفني الذي لا يسير وجهة نظرهم ، في أوقات المعاسر ، وتهذيب الوجدان ، ومن بين هؤلاء الغلاة نذكر الأستاذين منيف الشرباتي ونجيب عزب وغيرهما .

وكثير من التعقيبات التي وقفنا عليها ، سواء أشارت على سلب أم لم تشر ، لا تعتمد طريقة الكتابة الفنية ، وانما هي تعقيبات يجري فيها المعقبون كيفما يتفق . الفكرة الجوهرية شاحبة مضطربة ، في زاوية من زوايا التعقيب ، والمادة مبعثرة هنا وهناك ، وفقرات التعقيب متشابكة ، لا تقوم كل فقرة بفكرة ، وهدف المؤلف واضح حين إن كشف عنه المعقب ، والبداية لا نكهة فيها ، والنهاية مائعة ، فاترة .

والذي يثير الشجن حقا ، تعرض كثير من المعقبين الألوان من الفن لا يفهمونها ، فعقب على الشعر ، لم يهذب ذوقه ، وعقب على القصة ، لم يعرف لها أصولا ، وعقب على الدراسة ، لم يثقف فيها ، فلا جرم إذا شاهدت أغلب التعقيبات وعجزت عن انصاف المؤلفين ، وخدمة التأليف ، والحركة الفكرية في مصر .

❖

ومع هذا ، فما زلنا نحيي الأمل في ازدهار فن المراجعة والتعقيب في هذه البلاد ، إذ قدر الكاتبون وهمتهم نحو المؤلفات الجديدة ، وأدى المحررون الأدبيون واجبهم ومهمة الكاتبين تتحصر كما أشرنا في ثنايا هذا المقال . في قراءة المؤلفات الجديدة قراءة عميقة ، وتقديم خلاصة مركزة للقارىء المثقوف ، والاعراب عن آرائهم في شرف ونزاهة وشجاعة مقرونة بالأدب واللياقة .

أما واجب المحررين الأدبيين فيقوم على العناية بالمؤلفات الجديدة التي تخرجها المطبعة سواء أهديت للصحيفة والمجلة أم لم تهد إليها ، والاهتمام بالكتب القيمة منها ، وتوسيع صدرها لأقلام الكتاب الممتازين في بيان فضائلها أو هناتها ، دون نظر إلى شهرة المؤلف ، ومركزه الاجتماعي . فقد أصبح اليوم في عنق هؤلاء المحررين أوزار الموهوبين من الكتاب المغمورين ، كما أصبح في ذمة المراجعين والمعقبين ، تزويد القارىء بلباب المؤلفات ، وانصاف الأعمال القيمة ، ونصرة المؤلفين الناضجين العاملين في كد وابداع .